جماليات التصوير الفني بين تجليات مفهوم الصورة ودورها

The aesthetics of artistic photography between the manifestations of the concept of the image and its role

د/ حفصية بوخضرة

أ.د/ عبد الحميد معيفي

قسم اللغة والأدب العربي - (الجزائر)

boukhadrahafsia@gmail.com
hamidmaifi17@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2024/10/27	تاريخ القبول: 2025/02/07	تاريخ النشر: 2025/03/15

ملخص:

تعد الصورة الشعرية ملمحا أساسيا قادرا على أن يعطي للنص أبعادا دلالية، كما تُعتبر الميزان التفاضلي الذي يقيس به النقاد مدى إبداعية شاعر عن آخر، فهي بمثابة السلك الذي يشد حبات العقد بجعلها أكثر تناسقا، ولهذا يهتم النقاد بها، فهم على دراية بأنها ملاذ الشاعر فمن خلالها يصبح مصورا، فإلى أي مدى يكون للصورة الشعرية أثرها الجمالي وبعدها الإيحائي في النص؟، وإلى أي مدى تكون لصاحبها نظرته الثاقبة من خلال توظيفها؟، وله القدرة على الجمع بين المتناقضات، ولذلك قمنا بالسباحة في شاطئ مفهومها ووظيفتها ومحاولة الكشف عما يتركانه من أثر في نفسية المتلقي، لنتوصل إلى ما يلي: لا غنى للشاعر عن الصورة لأنها الملاذ والمقر الذي من خلاله ينطلق لمواجهة العالم بأسره، .يفرض الإبداع الشعري جعل الصورة الشعرية وسيلة وهدفا، لتكون بذرة مثمرة، فتمثل القصيدة بواقعها الذي تتجلى فيه في زمان ومكان محددين.

الكلمات المفتاحية: جماليات؛ التصوير الفني؛ مفهوم الصورة؛ دورها.

Abstract:

The poetic image is a fundamental feature capable of giving the text semantic dimensions. It is also considered the differential scale by which critics measure the creativity of one poet against another. It is like the thread that tightens the beads of a necklace, making them more harmonious. This is why critics pay attention to it, as they are aware that it is the poet's refuge, through which he becomes a painter, To what extent does the poet possess a keen insight through its employment, and the ability to reconcile contradictions? Therefore, we swam in the shore of its concept and function, attempting to uncover the impact they leave on the recipient's psyche, leading us to the following conclusions: The poet cannot do without the image because it is the refuge and the base from which they embark to face the entire world. Poetic creativity necessitates making the poetic image both a means and an end, so it becomes a fruitful seed, representing the poem in its reality, which manifests in a specific time and place.

***key words**:* Aesthetics; artistic photography; the concept of the image; its role.

تعد الصورة الشعرية ملمحا أساسيا قادرا على أن يعطي للنص أبعادا دلالية، كما تُعتبر الميزان التفاضلي الذي يقيس به النقاد مدى إبداعية شاعر عن آخر، فهي بمثابة السلك الذي يشد حبات العقد بجعلها أكثر تناسقا، ولهذا يهتم النقاد بها، فهم على دراية بأنها ملاذ الشاعر فمن خلالها يصبح مصورا، فإلى أي مدى يكون للصورة الشعرية أثرها الجمالي وبعدها الإيحائي في النص، وإلى أي مدى تكون لصاحبها نظرته الثاقبة من خلال توظيفها، وله القدرة على الجمع بين المتناقضات، ولذلك قمنا بالسباحة في شاطئ مفهومها ووظيفتها ومحاولة الكشف عن ما يتركانه من أثر في نفسية المتلقي.

أولا / مفهوم الصورة الشعرية:

للصورة الشعرية مكانة كبيرة في الدراسات الأدبية، لذلك تقرب منها الأدباء والدارسون والنقاد، ولا زالوا في سعي مستمر للتقرب منها أكثر للقيمة التي تحظى بها، فقام العديد بتعريفها، وكل طرف يمكن أن يقدم مفهوما للصورة الشعرية، ولكن تبقى في نظره لازالت تحتاج إلى مفاهيم أخرى وهذا يعود لشساعة مفهومها وعمقه، ولا يمكن حصره بكلمات أو بضع جمل لأن كل تعريف لها يعبر أو بالأحرى يعد وجهة نظر صاحبه، ولأن هذا الأخير قد تكون نظرته إليها من زاوية، والآخر ينظر إليها من زاوية ثانية وثالثة، ولهذه الأسباب تعددت - كما قلنا - سلفا التعاريف، فمنهم من نظر إليها على أنها تشكيل لغوي يغذيه خيال الكاتب أو الشاعر، ومنهم من عرفها بأنها عبارة عن صياغة لسانية خاصة، ومنهم من عرفها بأنها قالب أو شكل تصب فيه مشاعر خاصة بفرد ما،... إلخ، ونحن بدورنا نقول: بأنها لمسة فنية من لمسات الشاعر أملاها الخيال وأوصى بها فرسمها الشاعر في لحظة انفعالية ليستمتع المتلقي بطيفها فتجذبه وتقوده

لمتابعتها والكشف عن خباياها، و" الصورة في الأدب هي الصوغ اللساني المخصوص الذي بواسطته تمثل المعاني، تمثلا جديدا ومبتكرا بما يجعلها صورة مرئية معبرة، وذلك الصوغ المتميز والمنفرد، هو في حقيقته عدول عن صيغ إيحائية من القول إلى صيغ إيحائية، تأخذ سلوكاتها التعبيرية في تضاعيف الخطاب الأدبي"([1]).

وإذا كانت صياغة لسانية خاصة ففي هذه الصياغة طريقة جديدة من طرق التعبير المبتكرة والجديدة لتظهر وكأنها لوحة زيتية لها دلالات عديدة وتلك الصياغة هي خروج عن النظام المعتاد لاستعمال اللغة العادية وتكسيرها للوصول إلى نظام جديد ينتمي إلى لغة أرقى فيرتفع مستوى الكلام، وبذلك يرتفع أسلوب ومستوى النص ككل ويصل إلى الإبداعية، وهي كذلك لفتة من الشاعر أو الكاتب في لحظة من لحظات الزمن موقظة حسه الخفي معبرة عن نبضه ونبضات قلبه، وذلك في الحالة الانفعالية، وكلما كانت هذه الحالة قوية كلما كانت الصورة الشعرية أكثر وقعا على القلوب والعقول.

كما أن الصورة الشعرية تنضوي تحت لواء علم عظيم عرف منذ القديم وله جذور متأصلة وله تقاطعات مع كثير من العلوم، لذلك كان الاهتمام بها كبيرا، فهي تنتمي إلى علم البلاغة، "واهتمت طائفة أخرى من الدراسات الدلالية البلاغية لمصطلح الصورة، فكانت الصورة عندها هي بلاغة العصر الحديث، مع اختلاف طبيعية النظرة النقدية المعاصرة إلى الفنون البلاغية وماهية علائقها عن النظرة التراثية إليها"([2])، وهذا دليل على مكانتها عند كل من النظريتين القديمة والمعاصرة، (أن الصورة تبقى ملاذ الشاعر، فحين تتجمع الأحزان أو الأفراح في صدره، يصدر صورة معبرة عن كل حالة بما يماثلها في الوصف والتصوير، فلكل حالة مقتضياتها وظروفها وأطوارها، كما تلعب نفسية الشاعر الدور في تكييف كل حالة معبرة عن ذلك في شكل صور تعبيرية "فالصورة الشعرية هي الشكل أو القالب الذي يختلف من شاعر إلى أخر حسب دعوة أحواله النفسية والموقف الذي دعاه في قول الشعر"([3]).

فمن خلال القول تظهر لنا الصورة الشعرية على أنها رسالة ترميزية يرسلها الشاعر إلى المتلقي كي يعرف هذا الأخير الحالة التي وصل إليها الشاعر، ورغم أن الشاعر أضفى مسحة خيالية، إلا أن حقيقتها واقعية، وهذا في معظم الأحيان، والصورة الشعرية انعكاس لهذا الواقع، وفي العادة تصبح رسما لهذا الواقع وكشفا لأسراره رغم أنها محملة بالرموز، وهذه الرموز هي التي تكسبها الجدة والتنوع، فالمتلقي حين يحس بواقعية الصورة يصدقها مع الانبهار بجمالها، يستفيد ويتمتع، "فالصورة الشعرية وليدة تفاعل بين القصيدة والواقع، بمعايير بفرضها الإبداع الشعري على الشاعر فيظهر اجتهاده للتعبير من خلال تعاملها مع عقلية الآخر في لحظة ما من الزمن بمكان ما"([4]).

ونجد الكثير يعتقد بأن الصورة وليدة الخيال وحده، وهذا الاعتقاد من المغالطة، لأن الصورة الشعرية هي تفاعل الخيال والواقع، لأن الشاعر لا يمكن أن يستمر في القول والخيال يملي عليه بل من الواجب أن ينطلق من تجربة واقعية، إما أن تكون هذه التجربة حدثت له ، أو حدثت لغيره وحكيت له، أو حدثت

لغيره أمام عينه فتأثر بإحدى الحالات وكتب واصفا معبرا عنها؛ لأنها أداة من أدوات التعبير الجميل الفني الذي يجعلنا في لحظة ما نسبح في الفضاء، لذلك تبقى "الصورة في الشعر هي الشكل الفني الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة في القصيدة، مستخدما طاقات اللغة وإمكاناتها في الدلالة والتركيب والإيقاع والحقيقة والمجاز والترادف والتضاد والمقابلة والتجانس وغيرها من وسائل التعبير الفني..."([5]).

وبهذا نستطيع القول : إن الصورة الشعرية عبارة عن حادثة ذهنية مرتبطة أساسا بالإحساس، يستطيع من خلالها الشاعر توصيل جميع الطاقات المعبرة في ذاته وتقديمها للمتلقي بشعور صادق، وتوافق تام بين الفكر والإحساس لذلك نقول: " إن الصورة ليست أداة لتجسيد شعور أو فكر سابق عليها، بل هي الشعور والفكر ذاته، لقد وجدتها، ولم يوجد من خلالها"([6]).

وبالتالي فالشاعر من خلال دقة الصور يغوص في ذاته، وعقله الباطني مازجا العالم الخارجي بالعالم الداخلي بصور حسية ونفسية دقيقة للغاية في الجمالية كما أن الصورة الشعرية كما يراها الشاعر في تجربته هي السبيل الوحيد الذي يكشف به تجربته ويتفهمها كي يمنحها المعنى بفكره، ومن المعلوم أن" لغة الفن لغة انفعالية والانفعال لا يتوسل بالكلمة، وإنما يتوسل بوحدة تركيبية معقدة حيوية لا تقبل الاختصار نطلق عليها اسم " الصورة" إذن هي واسطة الشعر وجوهره"([7]).

والكثير يُعد الصورة معيارا فنيا في دراسة الشعر، فالصورة هي القيمة الجمالية التي يحددها خيال الشعراء، ويكون الشاعر الأفضل هو القادر على اختيار الكلمات الأدق والأكثر وقعا على نفسية المتلقي؛ لأنها وسيلة مهمة لنقل فكرة الأديب وعاطفته، وعملية تفاعل متبادل بين الشاعر والمتلقي للأفكار والحواس، والعاطفة تمثل الروح بالنسبة للصورة التي تنفخ في اللفظة لتأخذ القالب الوجداني النفسي لحالة الشاعر ما تحته الشعر طابعا يميزه عن غيره من الأشعار و" إن الصور تمنح الشعر ميزة التكثيف العاطفي للفكرة الأساسية والشاعر يوجه المعنى الذي يقصده من هذه الفكرة بتقييده أو التوسع فيه من خلال ارتباط الشعور والحس"([8]).

والصورة ركن أساسي من أركان النص، فهي الصفة المميزة له، تأخذ تميزها من خلال السياق الوارد فيه، وكذلك تعطي للنص تفرده وتميزه وهي كذلك منطقة جذب لإحساس ومشاعر القارئ عندما توظف بمهارة عالية من لدن الشعراء، وذلك باتساع مساحة أبعادها وإيحاءاتها، فالشاعر وكأنه يمزج من خلالها إحساسه وإحساس المتلقي فتتفاعل الفكرة مع العاطفة والشعور لتعبّر عن ذاته الشاعرة، " والصورة الفنية التي يشعر بها القارئ ويتذوقها ليست مجرد صورة أبلاها التداول وأنضبها الاستعمال، ولكنها صورة خاصة، أبدعها الفنان في قالب لغوي خاص، ومعنى ذلك أن القارئ لا يتذوق هذه الصورة إلا عند تفاعله مع عناصرها وتأمله فيها تأملا يثير خياله ويحرك فيه كوامن شعوره"([9]).

كما أن الصورة الشعرية تمثل عالما من المتناقضات والشاعر القدير هو الذي يتمكن من جعلك تقف حائرا أمام بساطة صوره من جهة وعمقها من جهة ثانية، حيث أنه يُخيل إليك أنك تعرفها، ولكن لا يمكن أن ترسم مثلها، لأنها تمثل كيانا قادرا على ربط العلاقات بين الألفاظ ولا تخلق المعنى فحسب، بل تخلق صورا جديدة على مستوى دلالة الصورة في حد ذاتها، سواء أكانت دلالة معنوية أو وظيفية، مع تبسيط الأفكار المراد طرحها في قوالب يملأها الجمال الحقيقي لتجعل التجريبي حسيا، وهذا ليس بالأمر الصعب عند الشعراء الكبار، لأن " المقصود بعبارة الصورة هو تلك الصورة الحسية، المتمثلة في الكلام، والتي لا تكون ضرورية لأجل توصيل وتأدية المعنى، لأنها تقتصر على التقديم الجمالي والحسي للفكرة، هذه الصورة المحققة في الكلام يتم الاستغناء عنها بمجرد تلقيها"([10]). أي أن الصورة تحمل العديد من الجماليات في النص الواحد مع توضيح للفكرة ، فهي تعلق بالذهن بعد ما كانت سابحة في الخيال لتقدم المعنى في شكل جديد يبعث الدهشة عند المتلقي.

والشاعر الكبير بإمكانه أن يوظف صورة في جميع الحالات، فيجعل المتلقي يرغب في الصورة التي ينفر منها، وكذلك يُنفره من الصورة التي يرغب فيها، فهو يجعله يعيش حالة التناقض مع نفسه، وهذا نجده في بيت عنترة بن شداد الذي يتكلم فيه عن ليونة ملمس الأفعى ويحذرنا من ردة فعلها، فهو يرغبنا في لمسها ناسين سمها وردة فعلها، لذلك فالمتنبي له القدرة على هذا النوع من الصور، ونجد الجاحظ يقول: " إنما الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير"([11]). وفي هذا القول: ثلاث حالات أو أوصاف للشعر.

أولها: وهي أن الشعر صناعة، ونحن نرى بأن الصناعة تنطبق على النظم أكثر مما تنطبق على الشعر.

وثانيهما: أن الشعر ضرب من النسيج أو النسج، وبالفعل الشعر الجيد يماثل النسيج في تلاحم أجزائه.

وثالثهما: أن الشعر جنس من التصوير، وهذا قد عرّجنا عليه في بداية المقال، وقلنا: بأن الشاعر يرسم بالكلمات مثلما يرسم المصور بالألوان، وهذا ينطبق على بيت عنترة بن شداد الذي يصور فيه الشخص الذي لا يغرك مظهره، كما أنه لا يغرك ملمس الأفعى الرطب.

وشعراؤنا أبدعوا في التصوير فجاءت صورهم غاية في الرقي والسمو والجمال، فهم انطلقوا من وقائع، ولكن طوروا هذه الحقائق، وجعلوا الخيال الوسيلة لنقل التجربة من السكون إلى الحركة والتأثير، ولهذا نجد الخيال يعيد البناء والتشكيل للوصول إلى معرفة حقيقة الظواهر و" إن الصورة نتاج لفاعلية الخيال ... وفاعلية الخيال لا تعني نقل العالم أو نسخه كما أسلفنا، إنما تعني إعادة التشكيل واكتشاف العلاقات الكامنة بين الظواهر، والجمع بين العناصر المتضادة أو المتباعدة في وحدة، وإذا فهمنا هذه الحقيقة جيدا أدركنا أن المحتوى الحسي للصورة ليس من قبيل النسخ للمدركات السابقة، وإنما إعادة تشكيل لها، وطريقة فريدة في تركيبها"([12]).

فالخيال يسبح في محيط الصورة، فتستمد نشاطها وتفاعلها وفاعليتها منه، وهي المادة والوسيلة المعتمدة من طرف الخيال للقيام بنشاطه، فضعف أو قوة الصورة يعود إلى ضعف أو قوة الخيال، لذلك نجد الصور تختلف من ناحية الجمالية اللفظية ومن ناحية المعنى وعمقه، ومن شعرائنا من يستطيع أن يجمع في صوره بين الجمالية التصويرية وجمالية المعنى، لذلك نجد فروقا بين الصور الشعرية، وفي أحيان عند الشاعر نفسه والصورة الخيالية" ليست كما في الواقع، والصورة ليست فكرا مجردا لأنها مشدودة إلى عالم الفكر الوجداني من جهة، وإلى عالم الحسّيات من جهة أخرى، وهذا هو الفرق الواضح في الجوهرين الصورة التي خرجت من عالم الفن المصبوغ بالمشاعر والخواطر والعواطف، وبين الصورة الحسية في الطبيعة التي لم يحد الفن العلاقات بين أجزائها، وتوضيح أسرار العلاقات بينها هو مناط الجمال من التصوير الأدبي"([13]).

وبهذا نجد صورتين، صورة واقعية والأخرى خيالية وهنا حوار وهذا الحوار إما أنه يُنهى بتوافق والتحام أو أنه يُنهى باختلاف وابتعاد، لذلك يجب أن تكون الصورة الخيالية أعم من الواقعية، وقادرة على احتوائها حتى يتسنى للشاعر احتواء التجربة كاملة، وتكون له قدرة كبيرة على الصياغة، أي صياغة الصور وجعلها قادرة على نقل واقع التجربة، وبهذا يكون وقع الصورة على المتلقي كبيرا، وكلما كان خروج الشاعر كبيرا كان أثر ذلك الخروج واضحا وجليا "... وبهذا تكون ظاهرة الانحراف ذات أبعاد دلالية إيحائية تثير الدهشة والمفاجأة، لذلك يصبح حضوره في النص قادرا على جعل اللغة متوهجة ومثيرة، تستطيع أن تمارس سلطة القارئ من خلال عنصر المفاجأة"([14]).

فحينما يصطدم المتلقي بالصورة فتخرجه معها عن السياق العادي إلى سياق كله غرابة فهي عبارة عن ومضة تجعل لغة النص البسيطة في لحظة ما لغة مثيرة وعميقة تثير كيان المتلقي، لذلك يصبح من الواجب على الكاتب أو الشاعر هذا الخروج حتى تنتقل هذه اللغة من المستوى العادي إلى المستوى الفني المثير والمدهش " ... فالمبدع يشكل اللغة حسبما تقتضي حاجته غير آبه بالحدود والأنظمة والدلالات الوضعية، فهو يعتمد إلى الانتقال مما هو ممكن إلى ما هو غير ممكن من خلال استخدامه الخاص للغة"([15]).

ومنه نجد أن الصورة الشعرية هجمة مباغتة للشاعر في حالة ثورته يفجر من خلالها طاقاته الإبداعية، ليعطي للعبارات المتفجرة أبعادا دلالية جديدة مفعمة بالغموض والإبهام في نظام أسلوبي خاص وممتع، وفي قالب متميز يجهله المتلقي لذلك تحدث الدهشة، وبذلك نصل إلى أن الصورة الشعرية هي استخدام خاص وطريقة من طرق الشاعر يوظف فيها لغته بكيفية تخصه وتميزه ليشكل من خلالها نظاما لغويا جديدا متجاوزا الطرق والأساليب السابقة، أي أن الصورة الشعرية تكسير للأنظمة والقواعد وتجاوز للأطر البسيطة، لصنع أنظمة وقواعد وأطر قادرة على أخذ المتلقي إلى الأفق الأرحب وتزويده بدلالات أعمق.

ثانيا / وظيفة الصورة الشعرية:

لكي تصلنا تجربة الشاعر ونتأثر بها يجب أن تتكوّن من عناصر مهمة، وأول هذه العناصر هي: الصورة الشعرية ولذلك فوجودها مهم في أي تجربة، بل تعتبر القلب النابض الذي تتحرك من خلاله التجربة وتصبح حيوية وفعالة بعدما كان السكون يخيم على أرجائها، وتظل الصورة وسيلة الشاعر وغايته في الوقت نفسه، فهي الوسيلة من خلال تفسيرها عن الواقعة والحالة بطريقة فنية تجعل المتلقي يتقبلها ويعانقها ويتعلق بها، ومن ناحية ثانية تصبح عامل إدهاش يسعى الشاعر في رسم الأجمل منه حتى تظل صوره صالحة لكل الأزمنة ، " فالصورة جزء من التجربة، ويجب أن تتآزر مع الأجزاء الأخرى في نقل التجربة نقلا صادقا: فنيا وواقعيا "([16])، وتظل الصورة الأساس في نقل التجربة من الجمود والصمت والسكون إلى الحركة والنشاط والبوح لأن التجارب التي كتب لها المجد كان الفضل الأول في تلك الكتابة وذاك الخلود لجمال الصورة وإيحائها البعيد وعمق دلالتها.

ويبقى المبدع بالأخص الشاعر معتمدا على الصورة الفنية وجاعلا منها ركيزة ليس فقط في الاعتماد عليها لإنطاق تجربته وتجليها ، وإنما تكمن أهميتها في علاقتها الخاصة مع الشاعر، وفي كيفية وجودها وتعايشها، فهي" ... تتولد بعد مواجهة حقيقية من الشاعر للعالم وإقبال روحي عليه وإدماج كامل فيه، ولذا تصبح رؤيته فيها خاصة، وأقل ما توصف به أنها رؤية داخلية متميزة بعالم جديد متميز، وهي رؤية تبتعد عن العادي المألوف والعلمي وتجري وراء الخفي البعيد المدهش" ([17])

فنلاحظ أن الصورة عزيزة النفس وغالية الثمن، فهي تظهر للوجود إلا بعد مواجهة حقيقية وصادقة بنية الشاعر من جهة والعالم من جهة ثانية، وتتحول الصورة بعد ذلك إلى وسيلة في يد الشاعر لرسم عالم جديد خاص به يختلف تماما عن عالمه الواقعي، وتتحول بعد ذلك من مجرد وسيلة إلى رؤية للتكوين والتجديد لعوامل أخرى وحياة أخرى تكون أكثر صدقا ونقاء، فهي التي يسعى من خلالها الشعراء لكتابة التاريخ والمجد الشعري، وبفضلها يصنعون لأنفسهم عالما خاصا بهم، راق ومتميز لأنها ببساطة تخرق الواقع والمنطق المفروض على عقولنا، وتكسر السائد لتسبح في أعماق المجهول وترسم الطرق والمسارات التي تخصها لوحدها وتكون على مقاسها لتأتي لنا بالجديد والمدهش والغريب محاولة كسر جمودنا، وإيقاظنا من سباتنا الدائم، والتحليق بنا في الأعالي راسمة أمامنا الأمل المشرق بكل ألوانه وأشكاله، فهي الوحيدة القادرة على بث الرغبة ومعانقة الحياة من جديد عند البائسين واليائسين"... وبذلك لم تعد الصورة مجرد مظهر لفكرة بسيطة، ولكنها غدت تصوير النماذج عليا تتخذ أوضاعا متشابهة عند الشعراء..." ([18])

ولم تظل الصورة مقرونة بالأفكار البسيطة المعبرة عن الحالات والأمور التي تتسم بالضيق والمحدودية، ولكن تجاوزت كل الحدود ورسمت لنفسها وطبيعتها اتجاهات ومسارات عليا في سماء المجد والخلود معلنة بذلك عن التفوق الحقيقي الذي يظل العديد من الشعراء يسعون إليه منذ انطلاقتهم في

الكتابة الشعرية، ولكن في كل مرة نجد الواحد منهم لا زال في البداية، والبعض يحس بأنه لم ينطلق بعد، وهذا الإحساس بعدم القدرة على الابتكار يترك لهم المجال في زرع الأمل من جديد حينما يتصفحون بوعي بعضا من النصوص المتفوقة، ليتجدد الحلم لمعانقة المجد، ولن يكون العناق عناقا إلا برسم أجمل وأدق وأبلغ الصور " فالشاعر أينما كان وفي أي زمان وُجد، وإلى أي جنس ينتمي يظل الناطق الفذ بالتجربة الإنسانية الشاملة، وتظل الصورة هي الشعار الذي يُبرز خصوصيته"([19]) وتفرده وتميزه في سماء العالم الشعري الذي لا يسبح فيه إلا الشعراء الحقيقيون.

وبذلك أصبحت الصورة هاجسا يؤرق الكثير من الشعراء الذين لم يستطيعوا أن يرسموا لحد الآن اللون الكتابي الخاص بهم، والذي يميزهم عن البقية رغم كتاباتهم العديدة، إلا أنهم في كل مرة يصطدمون بحاجز متين يمنع عنهم السير ويحجب عنهم الرؤية لإكمال المسيرة، وهذا يعود لأهميتها البالغة في حياة المبدع بصفة خاصة، وفي حياة الإنسان العادي بصفة عامة، فالصورة تفرض نفسها، لأنها ترسم ذاتها بذاتها، ولا فضل لأحد على إيجادها، بل كل الفضل لها هي، لأنها تظل "... حاضرة في كل مجالات حياتنا اليومية، إنها ليست مقتصرة على اللغة بل توجد في تفكيرنا...لأنها في الأصل ماكثة فيه، فهو الوعاء الذي يحتفظ بها، ويصدرها في الوقت المناسب كي يعالج بها ومن خلالها أمورا كثيرة في اعتقاد المتلقي، ومن جهة ثانية تبعث المتعة في نفس هذا الأخير، وتُذهب عنه السأم والملل اللذين ينجمان عن تقلبات هذه الحياة."([20])

ونجد هذا القول يُنصف الصورة ويعطيها حجمها وقدرها الذي تستحق نظرا للأهمية التي تكتسيها وضرورة وجودها في جزيئات حياتنا الخاصة والعامة ، فهي ساكنة أعماقنا وراسخة بأذهاننا، تنعش قلوبنا إذا وُظفت التوظيف اللائق ويبتهج شعورنا من خلالها، لأنها المعبر عن تلك الأحاسيس المتوهجة بأعماق أعماقنا، وهي من تثير فضولنا، وتزرع الأمل فينا وتغذي أحلامنا وطموحاتنا وتجعلها ثمينة وغالية ولا يمكن لتفكيرنا الاستغناء عنها، لأن من خلالها ينطق ويرسم أجمل اللوحات وأعذب الزينات في زمن التقلبات ليذهب عن المتلقي القلق وينسيه الأتعاب، وكذلك يجعل منها صاحبها حكمة ثمينة وزادا يغذيه عندما يحتاج على الغذاء الروحي الذي يجعلنا على الدوام نحلق في الفضاء الفسيح بعيدين عن جميع القيود منتعشين بتلك البساطة التي تزيدنا قوة وإصرارا على المواجهة والتقدم وتحقيق الأفضل.

كما أنها تصبح سلاح الشاعر ووسيلته المثلى في وصوله إلى مراتب السمو والرفعة:" ... ويُعبّر بها الشاعر عن المعاني العميقة في نفسه ويفلسفها موقفه من الواقع ويختلف بها عالمه الجديد من خلال توظيفه لطاقات اللغة المجازية، وما تحمله من إمكانيات دلالية إيقاعية."([21]) ، فيمكن للشاعر من خلالها أن يعيد بناء مخلفات تجاربه السابقة التي مرت عليها سنوات طوال ليستعيدها من جديد، وهي التي كانت نائمة بأعماقه، وكان يظن بأنها ماتت، إلا أنها من خلال الصورة تُبعث فيها الحياة ويستيقظ نبضها وينهض من سباته لتنفجر مشاعر الشاعر أنهارا وجداول وقوامه كلها تبعث على الحياة بأبهى صورها واسما معانيها

جاعلا من كل ذلك موقعا خاصا ومحددا به وبذلك من جراء تعامله الفلسفي مع تلك الصور، ويكون ضمن مرآة جديدة تمثل عالما متميزا للشاعر يبرهن فيه على أنه قادر على تفجير طاقاته اللغوية والإبداعية ، ويهدينا أجمل المعاني وأعمق الدلالات في قوالب إيقاعية تبهج النفس وتنعش العقل، وتجعل القلب يعيش سعادة ونشوة الإبداع الحقيقي الذي يُزرع ويُسقي لتكون حينها الثمرة ناضجة ويستمتع الناظر بتأملها والناقد بالسباحة بين أرجائها دونا توقف، وهذا ما يزيد القلب متعة والعقل راحة وانبساطا.

وهذه المتعة المنبعثة من خلال تلك السباحة في فضاء الإبداع لم تكن من أهداف الدارسين والنقاد، وإنما السياق الذي احتوى الصورة هو الذي فرض المتعة على الدارس والناقد، لأن وظيفتها " ... وظيفة انزياحية، تختلط فيها المعالم وتتلاشى الحدود وتميل إلى الإغراب والإدهاش، وتخرق قواعد العقل والمنطق"([22]) ، وهذا الاختراق لعالم العقل والمنطق، وهو اختراق من الداخل إلى الخارج، ومن الصمت المرغم إلى البوح المعلن، ومن القيد إلى التحرر، فهنا يمكن للشاعر أن يسبح كما يشاء في سماء الإبداع، يسبح أينما يشاء بخياله الراقي ليصير كالطائر المحلق في أعالي الجبال إن شاء نزل وإن شاء حلق أكثر وعلا فيزيده ذلك العلو روعة وجمالا ومعزة، وهذا بفضل الصورة، والتي هي عبارة عن" ...شكل يتفاعل ويومض ويحرك ويصدم، ويفجر، وهذا كله من صفات المادة، ولا مادة بغير الشكل..." ([23]).

وبالفعل تصير الصورة ملاذا وملجأ وعاملا يومض ويحرك ويصدم، ويفجر فينا وبأعماقنا الصمت الذي اعترانا وتجاوز حدودنا ليرسم بداخلنا عالما منسيا، ولكن هذا العالم يضيء ويتحرك ويتفجر من خلال الصورة لننطلق من جديد وكأننا ولدنا في هذه اللحظة، فالصورة تجعل منا، بل بالأحرى تجعلنا نحس بقيمة الحياة ، فهي تحسسنا وتشعرنا بوجودنا وبوجود النبض فينا، وتنعش بذرة الأمل وتسقي بذورها بأعماقنا.

فالصورة الشعرية تظل شاهدة على ميلاد جميع الأجيال وشاهدة على كل عصر من عصور الحياة " ... وشاهدة على قدرة الشعر في اختزان رحيق الحياة وتعتيقه وإغرائه للقراء بمعاودة توليده وتخليقه في محاولات متجددة لاكتشاف جماليته وتوصيف تقنياته وأساليبه" ([24]) ،فهي المسؤولة الأولى في عن تعتيق رحيق حياتنا، ليصبح الرحيق بفضلها متميز الطعم من يذق منه رشفة سيظل الأمل بداخله على الدوام مولودا منتعشا والحلم سيبقى كبيرا، فهو الذي بفضله كان ولازال معانقا سماء الإبداع السامي الحقيقي، فلا يعكّر صفاءه أي دخيل، ليظل الصفاء رمزها وانطلاقتها وطريقتها وعنوانها، فهذا هو دور الصورة باختصار، لأن قوتها وجمالها الحقيقي نابعان من ذاتها، فهي التي كوّنت نفسها بنفسها، ولها الفضل على العديد من مجريات الحياة من النشأة إلى الترعرع إلى العطاء.

كما أن دورها على القصيدة عظيم، فبإمكانها "... أن تجمع القصيدة في منديل معقود تتكثف بشعريتها بقدر ما تغزل مجازاتها وتستحلب أساطيرها بتؤدة وأناة، محافظة على اتساقها وطابعها التوصيلي البارز..."

([25]) ، فهي النبض والروح الذي ينعش حياة القصيدة ويعطي لها هيبة وكيانا ووجودا لتصير تلك الأبيات قطعة ذهبية تتلألأ في سماء الوجود مستقطبة ببريقها الفريد القلوب والعقول معا.

خاتمـة:

الصورة الشعرية هي لمسة فنية تأخذ من الخيال شكله ومن البحر عمقه ، ومن الماء صفاءه ، ومن السماء زرقتها ومن الطبيعة سحرها ، إنها سلاح الشاعر سيفه اللامع، إنها حسه الفني الذي يعتريه في لحظات الاحتدام والصراع النفسي الذي يغتاله تارة ويبعث بداخله الأمل تارة أخرى، فيضحك القمر الباكي ويبكي الشمس الضاحكة، ويحرك البحر باتجاه المجهول الذي يجعل منه إنسانا بريئا أو حيوانا متوحشا كما يحلو للشاعر ، وكما يتعامل مع حالاته، ومع الصور التي تداعبه حينا وتدميه أحيانا فيلامسها الواقع لحظة، ويطفوا الخيال على سطحها في لحظة أخرى.

وبعد جولتنا ومحاولة سباحتنا بين ثنايا مفهوم الصورة الشعرية ووظيفتها توصلنا إلى العديد من النتائج، ونذكر البعض منها على النحو التالي:

1 ـ لا يمكن للشاعر الاستغناء عن الصورة لأنها الملاذ والمقر الذي من خلاله ينطلق لمواجهة العالم بأسره.
2. يفرض الإبداع الشعري جعل الصورة الشعرية وسيلة وهدفا، لتكون بذرة مثمرة، فتمثل القصيدة بواقعها الذي تتجلى فيه في زمان ومكان محددين.

3. تبقى القوانين وسيلة للوصول إلى نتائج في الجانب العلمي ، وتبقى الصورة وسيلة الجمال والإدهاش والتعلق بكل ما هو فني .

4. يظل الكلام في أحيان عديدة طبلا أجوفا لا يزيل هما ولا يذيب قلقا، وحين يُضمّن بالصورة يُصبح مكثف الدلالات والمعاني وبعيد الأهداف والمرامي.

5. إن الشاعر الذي عرف حقيقة الصورة ودورها وأهميتها سيدرك بأنها لا توصل المعاني والدلالات فقط. بل هي قادرة على تقديم الجمال الحسي للأفكار.

6. تظل الصورة الشعرية هي النبض القائم في القصيدة منذ ولادتها إلى اكتمال نضجها، وهي المحرك الحقيقي الذي يجعل تلك القصيدة تستقطب وتثير جل الأذواق. 7. تظل الصورة تمثل رؤية الشاعر الأصيلة دونما زيادة أو نقصان، لأنها من خلال تلك الرؤية يستطيع الشاعر أن يكثف العالم ويشكله ويرسله من جديد في أجمل وأحلى صورة.

الهوامش والإحالات :

[1] - بشرى موسى صالح، الصورة الشعرية في النقد الغربي الحديث، المركز الثقافي الغربي،ط1، بيروت، لبنان، 1994، ص03.

[2] - المرجع نفسه، ص37.

[3] - خليل بن دعموش، الصورة الشعرية في ديوان أبي الربيع عفيف الدين التلمساني، دراسة أسلوبية بلاغية، رسالة ماجستير في اللغة العربية، جامعة الحاج لخضر، باتنة ، الجزائر، 2009، 2010، ص11.

[4] - الصفحة نفسها.

[5] - عبد القادر القط، الاتجاه الوجداني في الشعر الغربي المعاصر، دار النهضة العربية، بيروت، 19980، ص197.

[6] - محمد حسن عبد الله، الصورة والبناء الشعري، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط غ م ،س غ م، ص33.

[7] - نعيم اليافي، مقدمة لدراسة الصورة النفسية، منشورات وزارة الثقافة للإرشاد القومي، دمشق، سوريا، 1982، ص39،40.

[8] - محمد حسن عبد الله، الصورة والبناء الشعري، مرجع سبق ذكره ص37.

[9] - حسام تحسين ياسين سلمان، الصورة الشعرية الفنية في شعر القيسراني، عناصر التشكيل والإبداع، رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، كلية نابلس، فلسطين، 2011، ص03.

[10] - محمد الولي ، الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 1990، ص37.

[11] - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي، ط3، ج3، بيروت، لبنان، 1969، ص132.

[12] - جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 1992، ص309.

[13] - علي صبيح، البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر، المكتبة الأزهرية للتراث، 1996، ص15.

[14] - موسى سامح ربابعة: الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، دار الكندي للنشر والتوزيع،ط1، الأردن، 2003، ص58.

[15] - عبد الأمير الأعصم، المصطلح الفلسفي عند العرب، الدار التونسية للنشر ، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1991، ص14.

[16] - محمد عشي هلال، النقد الأردني الحديث، نهضة مصر، القاهرة، مصر، 1979، ص417.

[17] - عبد القادر الرباعي، الصورة الفنية في النقد الشعري، (دراسة في النظري والتطبيقي)، دار جرجر للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن،2009، ص116.

[18] - المرجع نفسه، ص152

[19] - المرجع نفسه، ص117.

[20] - جورج لايكوف ومارل جونسون، الاستعارات التي نحيا بها، ترجمة: عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، ط2، 2009، ص21.

[21] - علي غريب ومحمد الشناوي، الصورة الشعرية عند الأعمى التطيلي، مكتبة الآداب، ط1 2003، ص30.

[22] - أحمد مبارك الخطيب، الانزياح الشعري عند المتنبي في التراث النقدي عند العرب، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، سورية، 2009، ص181.

[23] - محمد حسن عبد الله، الصورة والبناء الشعري، مرجع سبق ذكره، ص29.

[24] - صلاح فضل، قراءة الصورة وصورة القراءة، دار الشروق، ط1، القاهرة، مصر، 1997، ص75.

[25] - الصفحة نفسها.

قائمة المصادر والمراجع :

1. أحمد مبارك الخطيب: الانزياح الشعري عند المتنبي في التراث النقدي عند العرب، دار الحوار للنشر والتوزيع، ط1، سورية، 2009.
2. بشرى موسى صالح: الصورة الشعرية في النقد الغربي الحديث، المركز الثقافي الغربي،ط1، بيروت، لبنان، 1994.
3. جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 1992.
4. الجاحظ: كتاب الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي، ط3، ج3، بيروت، لبنان، 1969.
5. جورج لايكوف ومارل جونسون: الاستعارة التي نحياها، ترجمة: عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، ط2، 2009.
6. خليل بن دعموش: الصورة الشعرية في ديوان أبي الربيع عفيف الدين التلمساني، دراسة أسلوبية بلاغية، رسالة ماجستير في اللغة العربية، جامعة الحاج لخضر، باتنة ، الجزائر، 2009، 2010.
7. عبد القادر القط: الاتجاه الوجداني في الشعر الغربي المعاصر، دار النهضة العربية، بيروت، 19980.
8. محمد حسن عبد الله: الصورة والبناء الشعري، مكتبة الدراسات الأدبية، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط غ م ،س، غ، م.
9. نعيم إليافي: مقدمة لدراسة الصورة النفسية، منشورات وزارة الثقافة للإرشاد القومي، دمشق، سوريا، 1982.
10. حسام تحسين ياسين سلمان: الصورة الشعرية الفنية في شعر القيسراني، عناصر التشكيل والإبداع، رسالة ماجستير في اللغة العربية وآدابها، كلية نابلس، فلسطين، 2011.
11. علي علي صبيح: البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر، المكتبة الأزهرية للتراث، 1996.
12. موسى سامح ربابعة: الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، دار الكندي للنشر والتوزيع،ط1، الأردن، 2003.
13. عبد الأمير الأعصم: المصطلح الفلسفي عند العرب، الدار التونسية للنشر ، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1991.
14. محمد عشي هلال: النقد الأردني الحديث، نهضة مصر، القاهرة، مصر، 1979.
15. محمد الولي: الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، ط1، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 1990.
16. عبد القادر الرباعي: الصورة الفنية في النقد الشعري، (دراسة في النظري والتطبيقي)، دار جرجر للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن،2009.
17. علي غريب ومحمد الشناوي: الصورة الشعرية عند الأعمى التطيلي، مكتبة الآداب، ط1 2003.
18. صلاح فضل: قراءة الصورة وصورة القراءة، دار الشروق، ط1، القاهرة، مصر، 1997.